تلك البلاد قط إلا خرجتين أحدهما إلى الشام وهو صبي مع عمه إلى أول أرض الشام ورجع والأخرى أيضا إلى أول الشام ولم يطل بها البقاء ولا فارق قومه قط ثم أوطأ ا تعالى رقاب العرب كلها فلم تغير نفسه ولا حالت سيرته إلى أن مات ودرعه مرهونة في شعير لقوت أهله أصواع ليست بالكثيرة ولم يبت قط في ملكه دينار ولا درهم وكان يأكل على الأرض ما وجد ويخصف نعله بيده ويرقع ثوبه ويؤثر على نفسه وقتل رجل من أفاضل أصحابه مثل فقده يهد عسكر اقتل بين أظهر أعدائه من اليهود فلم يتسبب إلى أذى أعدائه بذلك إذ لم يوجب ا تعالى له ذلك ولا توصل بذلك إلى دمائهم ولا إلى ذم واحد منهم ولا إلى أموالهم بل فداه من عند نفسه بمائة ناقة وهو في تلك الحال محتاج إلى بعير واحد يتقوى به وهذا أمر لا تسمح به نفس ملك من ملوك الأرض وأهل الدنيا من أصحاب بيوت الأموال بوجه من الوجوه ولا يقتضي هذا أيضا ظاهر السيرة والسياسة فصح يقينا بلا شك أنه إنما كان متبعا ما أمر به ربه D كان ذلك مضرا به في دنياه غاية الإضرار أو كان غير مضر به وهذا عجب لمن تدبره ثم حضرته المنية وأيقن بالموت وله عم أخو أبيه هو أحب الناس إليه وابن عم هو من أخص الناس به وهو أيضا زوج ابنته التي لا ولد له غيرها وله منها أبان ذكران وكلا الرجلين المذكورين عمه وابن عمه عنده من الفضل والدين والسياسة في الدنيا والبأس والحلم وخلال الخير ما كان كل واحد منهما حقيقا بسياسة العالم كله فلم يحابهما وهما من أشد الناس عناء عنه ومحبة فيه وهو من أحب الناس فيهما إذ كان غيرهما متقدما لهما في الفضل وإن كانا بعيد النسب منه بل فوض الأمر إليه قاصدا إلى مر الحق وإتباع ما أمر به ولم يورث ورثته ابنته ونساءه وعمه فلسا فما فوقه وهم كلهم أحب الناس إليه وأطوعهم له وهذه أمور لمن تأملها كافية مغنية في أنه إنما تصرف بأمر ا تعالى لا بسياسة ولا بهوى فوضح بما ذكرنا وا الحمد كثيرا أن نبوة محمد A حق وأن شريعته التي أتى بها هي التي وضحت براهينها واضطرت دلائلها إلى تصديقها والقطع على أنها الحق الذي لا حق سواه وأنها دين ا تعالى الذي لا دين له في العالم غيره والحمد رب العالمين عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته على ما وفقنا إليه من الملة الإسلامية ثم على ما يسرنا عليه من النحلة الجماعية السنية ثم على ما هدانا له من التدين والعمل بظاهر القرآن وبظاهر السنن الثابتة عنه A عن باعثه D ولم يجعلنا ممن يقلد أسلافه وأحباره دون برهان قاطع وحجة قاهرة ولا ممن يتبع الأهواء المضلة المخالفة لقوله وقول نبيه A لا ممن يحكم برأيه وظنه دون هدى من ا ورسوله اللهم كما ابتدأتنا بهذه النعمة الجليلة فأتمها علينا وأصحابنا إياها ولا تخالف بها عنا

حتى تقبضنا إليك ونحن متمسكون بها فنلقاك بها غير مبدلين ولا مغيرين اللهم أمين رب العالمين وصل اللهم على محمد عبدك ورسولك وخليلك وخاتم أنبيائك خاصة وعلى أنبيائك عامة وعلى ملائكتك كافة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم